

آليات التحليل الماركسي

زيات فيصل

مختار ديدوش محمد

جامعة العربي التبسي - تبسة

جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر 2

ملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى الكشف عن الأدوات والآليات التي تعتمد عليها الفلسفة الماركسية في عملية تحليل وتفسير الظواهر الطبيعية والأحداث الاجتماعية والاقتصادية. إذ تتمثل هذه الآليات في: المادية الجدلية التي مجالها منصب على الظواهر الطبيعية لمعرفة مبادئها وأسسها وحركتها وتغيراتها، والمادية التاريخية التي تهتم بتفسير الظواهر الاجتماعية تبعاً للنشاط المادي والاقتصادي الحاصل داخل المجتمع، إضافة إلى الصراع الطبقي الحاصل بين الذين العمال والملاك وما ينجر عنه من تغيير لخريطة العلاقات داخل المجتمع.

الكلمات المفتاح: الماركسية، المادية الجدلية، المادية التاريخية، الصراع الطبقي.

Abstract : Nous visons de par cette recherche à découvrir les outils et les modalités sur lesquels se fonde le marxisme à l'analyse et à l'interprétation des phénomènes naturels et les faits sociaux et économiques. Ces modalités comprennent : le matérialisme dialectique dont le domaine focalise sur les phénomènes naturels pour dévoiler ses principes et ses fondements, son mouvement et ses changements, le matérialisme historique qui consiste à l'interprétation des phénomènes sociaux qui résultent de l'action matérielle et économique au sein de la société ainsi que le conflit de classes qui se dessine entre les ouvriers et les propriétaires et ce qui en résultent de changements de la carte des relations à l'intérieur de la société.

Keywords : Marxisme – matérialisme dialectique – matérialisme historique – conflit de classes.

مقدمة:

لقد احتلت الفلسفة الماركسية مكانة هامة في تاريخ الفكر والفلسفة، وعرفت انتشارا واسعا في العالم باعتبارها فلسفة نقدية واقعية جاءت لنفي ورفض الفلسفات المثالية، فهي تنطلق في تحليلاتها من الواقع لا من أجل تفسيره وإنما بهدف تغييره. هذا ويرجع مفهوم الماركسية إلى اسم مؤسسها وصاحب الإسهام الأكبر فيها الفيلسوف الألماني كارل ماركس، فقد كانت تعبر في البداية عن ذلك الإنتاج الفكري الذي أنتجه ماركس في حياته بما في ذلك المؤلفات المشتركة بينه وبين رفيق دربه فريدريك إنجلز. إلا أن هذا المصطلح قد توسع فيما بعد وأصبح يشمل جميع الأبحاث الدراسات التي تطرقت من قريب أو بعيد لفكر ماركس وإنجلز، وأيضا تلك التي استندت على أطروحاتهم ومفاهيمهم.

لقد مثل ظهور الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر ميلادي ثورة وقفزة نوعية في تاريخ الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا راجع لاختلافها عن كثير من الفلسفات التي سبقتها من حيث الطرح والمنهج. فهي تنفرد عنها من خلال ربطها بين النظرية والممارسة أي توحيدها بين الجانبين النظري والعملي. إضافة إلى ذلك برزت الماركسية بعد أن اكتملت التغيرات البرجوازية المناهضة للنظام الإقطاعي وانتشارها في معظم العواصم الأوروبية الكبرى كفرنسا وإنجلترا. فقد أتت كرد على الظلم والاستغلال الذي كانت تتعرض إليه الطبقة البروليتارية من قبل الطبقة الرأسمالية. فأصبحت بذلك تمثل التعبير الواعي عن مصالح الطبقة العاملة وبرنامجها النضالي في سبيل التحرر من الظلم والاضطهاد. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعتمد الماركسية على مجموع أدوات ووسائل وآليات تعطيها المرونة والقدرة على التحليل والتفسير والتغيير سواء تعلق الأمر بالظواهر الاجتماعية أو الطبيعية. ومن هنا نطرح السؤال التالي: فيما تتمثل هذه الآليات؟ وفيما تكمن قيمتها ودورها في تفسير الأحداث والظواهر؟

أولا/ المادية الديالكتيكية (الجدلية) le matérialisme dialectique

قبل التطرف لمفهوم المادية الديالكتيكية يجب أولا أن نوضح المفردات التي يتكون منها هذا المصطلح كلا على حدا باعتبارها تشكل عنصر من عناصرها، ونقصد بذلك مفهوم المادية والديالكتيك.

إن كلمة المادية في أصلها اللغوي مشتقة من لفظ "مادة" التي تعني أن "كل شيء يكون مددا لغيره. كل جسم ذي امتداد ووزن، ويشغل حيزا من الفراغ. ومادة الشيء: أصوله وعناصره التي منها يتكون."¹ هذا ويعتبر أرسطو أول من وضع مصطلح المادية عند دراسته لموضوع التغيير، "فارتأى أن المادة لا تدرك مباشرة وإنما بالمثالة. وصعوبة هذه المعرفة مردودة إلى أنها خارج نطاق المعرفة. فليس ثمة شيء يبقى بعد نزع جميع كيفيات الموجود، ثم إن المادة ليست من بين المقولات لأنها لا تحمل على شيء، ولكنها قوة كما أن الصورة فعل."² إن المادية مذهب واتجاه فلسفي يرد جميع الظواهر الاجتماعية والطبيعية إلى المادة. بمعنى أن كل ما هو موجود في هذا العالم مؤلف من المادة ولا وجود لشيء غير مادي كالفكر أو الروح.

أما مصطلح الجدال أو الديالكتيك في أصله اليوناني "مكون من مقطعين: dia ويعني التبادل، و dialektos ويعني المناقشة. الديالكتيك إذن في أصله تبادل الآراء. وإذا كانت الغاية من تبادل الآراء هي الإقناع فالديالكتيك إذن هو فن الإقناع. وإذا كان الإقناع يستند إلى البرهان فالديالكتيك إذن هو فن البرهان."³ ومنه نجد أن كلمة الديالكتيك تتضمن معاني الحوار والمناقشة والبرهان والإقناع.

إن الجدال عموما هو فن المناقشة والحوار من أجل بلوغ الحقيقة وذلك عن طريق كشف المتناقضات في قضايا الخصم وحلها. بعد توضيح مفهومي المادية والديالكتيك التي يتكون منهما مصطلح المادية الديالكتيكية نصل في الأخير إلى تعريف عام لها مفاده أنها عبارة عن "رؤية كونية علمية وفلسفية طرحها ماركس وإنجلز وطورها لينين استنادا إلى التقدم العلمي والحركة العمالية الثورية. مفادها أن المادية علمية حين تكون جدلية، ومن ثم تتجاوز المادية الجدلية مادية القرن الثامن عشر لأنها ميتافيزيقية وميكانيكية، وتتجاوز جدلية هيكل لأنها مثالية، وتتميز عن الفلسفة القديمة بأنها لا تقف عند حد تفسير العالم بل تتجاوزه إلى حد التغيير، وذلك بالكشف عن القوانين المتحركة في تطور الطبيعة والمجتمع والفكر، وعن مبادئ العالم الموضوعي وانعكاسه على الوعي الإنساني."⁴ فهي تهدف إلى "إدراك الاتجاهات المتضادة المتناقضة التي تنفي بعضها البعض في كل ظواهر وعمليات الطبيعة. فهذا وحده يزودنا بمفتاح الحركة الذاتية لكل شيء موجود، إنه وحده الذي يزودنا بمفتاح الوثبات وانقطاع الاستمرار والتحول إلى الضد ودمار القديم ويزوغ الجديد."⁵

هذا ويتحدد موضوعها بشكل أساسي في حل الاشتباك بين قضيتي الوعي (الفكر) والطبيعة (المادة). وهذا من حيث الأسبقية في الوجود والتأثير في الآخر؛ هل المادة أسبق أم الوعي؟، هل المادة تحدد الوعي أم العكس الوعي هو الذي يحدد المادة؟.

حل هذه الإشكالية ظهرت عدة نظريات واتجاهات فلسفية مختلفة تنقسم في مجملها إلى اتجاهين أساسيين: المادية والمثالية، الأولى ترى أن المادة أسبق من الوعي وهي أساس الوجود، والثانية تقول بالعكس وأن الوعي أو الروح سابق على المادة. يقول إنجلز: «إن أعلى مسألة في الفلسفة بكاملها، مسألة علاقة الفكر بالوجود، علاقة الروح بالطبيعة ... وقد انقسم الفلاسفة إلى معسكرين كبيرين وفقا للجواب الذي يجيبون به عن هذه

المسألة. فأولئك الذين أكدوا أن الروح وجدت قبل الطبيعة ... ألفوا معسكر المثالية وأما أولئك الذين اعتبروا الطبيعة هي الأول فقد انتموا إلى مختلف مدارس المادية.⁶ وهذا الاختلاف بينهما راجع إلى تعارض طريقة تفسير وفهم كلا منهما لطبيعة هذا العالم.

قوانين المادية الديالكتيكية:

هناك ثلاث قوانين أساسية تعتمد عليها المادية الجدلية في تحليل الظواهر وتفسيرها تتمثل في:

أ_ قانون وحدة وصراع الأضداد أو المتناقضات:

إن السبب الرئيسي لحركة الأشياء وتطورها يرجع إلى احتواء هذه الأشياء على تناقضات متصارعة داخلها، فكل ظاهرة تحتوي في نظامها الداخلي على متناقضات متصارعة فيما بينها، يقول إنجلز: «إن الطبيعة كلها من أضال الأجزاء إلى أكبر الأجسام، من حبة الرمل إلى الشمس، من البروتست إلى الإنسان، هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال، هي في مد لا ينقطع، في حركة وتغير مستمرين أبديين.»⁷ وصراع الأضداد هذا هو الذي يولد الحركة ويبحث التطور، فلا يمكن أن نتصور أي شكل من الأشكال الحركة بدون أضدادها، "فالحركة نفسها هي تناقض." ⁸ وهذه الأضداد ليست منفصلة عن بعضها البعض، وإنما تشكل وحدة عضوية مترابطة ومتداخلة. كما تجمعها في نفس الوقت علاقة صدام وصراع، فكل ضد يحاول الفوز بأفضلية ترجيح الظاهرة لجعلها على صورة معينة.

ب_ قانون الانتقال من الكم إلى الكيف:

تغير ظاهرة ما معناه انتقالها من حالة معينة إلى حالة أخرى، من حالة كمية إلى حالة كيفية أو العكس. "وانتقال الشيء من حالة كيفية معينة إلى حالة كيفية أخرى نتيجة للتغيرات الكمية المتدرجة هو طفرة في مجال التطور، والطفرة هي تحطيم لتدرج التغير الكمي للشيء، أو هي الانتقال إلى كيف جديد." ⁹ وهنا نطرح السؤال التالي: كيف يتم تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات نوعية؟. المثال الآتي يوضح لنا طريقة التحول: إذا قمنا بتسخين كمية من الماء فإن حرارته ترتفع وترتفع ولكنها لن ترتفع إلى ما لا نهاية، فعندما تبلغ درجة معينة ومحددة يبدأ الماء في التحول إلى بخار، أي الانتقال من حالة سائلة إلى حالة غازية، وهذا ما يسمى بالتغير الكيفي. وهذا معناه أن التراكم التدريجي للتغيرات الكمية ليس دائم ومستمر، وإنما له حدود عندما يصلها يحدث ما يسمى بالطفرة التي تتم بسرعة كبيرة وفائقة، وفيها يتوقف التغير الكمي ليبدأ التحول النوعي الجديد. وهكذا يتضح أن التغير الكمي يتم بصورة تطويرية بطيئة وفي وقت طويل، بينما التحول النوعي يتم بصورة ثورية وفي زمن قصير.

ج_ قانون نفي النفي أو سلب السلب:

إن مسار التطور عبارة عن مجموع مراحل متعاقبة، كل مرحلة تنفي المرحلة التي سبقتها، وهي بدورها تنفيها مرحلة لاحقة لها وهكذا، فكل مرحلة لها بداية ونهاية. وما دام العالم يشتمل على عدد لا متناه من الظواهر، ولكل ظاهرة بداية ونهاية، فإن النفي يبقى مستمرا باستمرار الظواهر. إن النفي الجدلي لا يعني الفناء والقضاء الكلي على المرحلة السابقة، وإنما كل مرحلة تنفي وتحفظ في وقت واحد بالمرحلة السابقة فالنفي الجدلي هو نفي واحتفاظ معا هدم وتطور أبعد.¹⁰ فهو ينفي سلبيات المرحلة السابقة ويحتفظ بإيجابياتها لتكون أساسا لتطور لاحق. يعطي إنجلز مثال على نفي النفي فيقول: «إذا توافرت حبة الشعير الظروف الطبيعية اللازمة وإذا وقعت في تربة ملائمة، يحدث لها بتأثير الحرارة والرطوبة تغير فريد: فهي تبرض ولا تعود الحبة موجودة كحبة، وهي تتعرض للنفي، وبدلها تظهر النبتة التي نمت منها، أي نفي الحبة ... إنها تنمو وتزهر وتتلقح وأخيرا تنجب من جديد حبات شعير، وحالما تنضج هذه الحبات تنضج الساق وتتعرض بدورها للنفي. ونحصل هنا من جديد على حبة الشعير المنطلقة كنتيجة لنفي النفي هذا.»¹¹ هذا الجديد الذي يحصل من خلال نفي القديم ليس منفصل عنه (القديم)، وإنما هو يتكون ويتبلور داخل القديم نفسه، وكلما ازداد تقدما ازداد القديم تدهورا وهكذا إلى تتم العملية برمتها.

إن القوانين الثلاثة السالفة الذكر مرتبطة مع بعضها البعض بحيث لا يمكن الفصل بينها، فهي التي تتحكم في حركة المادة وتطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة، بحيث تعطينا فكرة شاملة عن تطور العالم. فإذا طبقت على الطبيعة يصبح لدينا المادية الجدلية، وإذا طبقت على المجتمع يكون لدينا المادية التاريخية.

ثانيا/ المادية التاريخية: le matérialisme historique

يعتبر الفيلسوف فريدريك إنجلز أول من استعمل لفظ المادية التاريخية في مقدمة كتابه "الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية". مشيراً إلى أنه يعني بهذه العبارة "ذلك التصور للتاريخ الذي مفاده أن العلة الأولى والحرك الحقيقي لكل الأحداث التاريخية الهامة يكمنان في التطور الاقتصادي للمجتمع. وفي تحول أنماط الإنتاج والتبادل وفي انقسام المجتمع إلى طبقات مختلفة، وفي تطاحن هذه الطبقات." ¹² أما كارل ماركس فلم يخصص أي كتاب أو مؤلف يشرح فيه المادية التاريخية، وإنما وردت في مجمل أعماله على شكل متفرقات وشذرات. فهو كان ينظر إليها على أنها أسلوب عملي في التحليل الاجتماعي والتاريخي والسياسي لا على أساس أنها نظرية فلسفية أو نظام فلسفي متكامل.

تعتبر المادية التاريخية حالة خاصة من المادية التي تركز تحليلاتها وتفسيراتها على الظواهر الاجتماعية والاقتصادية. فهي ذلك "العلم الذي يبحث عن القوانين العامة والقوى الدافعة لتطور وتغير المجتمع الانساني. ولا يقتصر موضوعها على دراسة تاريخ المجتمعات والشعوب وكيفية تطور نظمها الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت خلال فترات تاريخية معينة من تطور المجتمع الانساني. ولكن أيضاً تشتمل _ المادية التاريخية _ على دراسة قوانين الحياة المعاصرة لمختلف الدول والنظم سواء كانت رأسمالية أم اشتراكية أم نامية، ودراسة قوانين الحياة الاجتماعية والبشرية بصورة عامة." ¹³

على عكس هيجل الذي اهتم بالدوافع الفكرية والنشاط الفكري للناس في دراسته للتاريخ توصل بموجبه إلى نتيجة مفادها أن تطور المجتمع يسير وفق تطور الفكرة المطلقة أو الروح المطلقة التلقائي. فإن كارل ماركس وإنجلز قد ركزا اهتمامهما في دراستهم لتاريخ تطور المجتمعات الانسانية على النشاط المادي وعلاقات الإنتاج المادية القائمة في المجتمع. فالتفسير المادي للتاريخ عند ماركس قائم على "أساس إعلاء الاقتصاد واعتبار القوى المادية هي صاحبة الأثر الأكبر في تشكيل الأحداث والإنتاج هو أساس النظام الاجتماعي وأن تاريخ البشرية كله هو التاريخ المادي وأن المواقف الاجتماعية والسياسية والمعنوية هي انعكاس لأسلوب الإنتاج." ¹⁴ فنشأة الوقائع التاريخية والظواهر الاجتماعية ترجع لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى. وفي هذا يقول ماركس: «إن بنية المجتمع الاقتصادية هي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بنيته الفوقانية أعني البنية القضائية والسياسية، فكل صورة من صور الوعي الاجتماعي مطابقة لهذا الأساس، وكل حركة من الحركات الاجتماعية والسياسية والروحية تابعة لمنط الإنتاج الاقتصادي.» ¹⁵ فالقوى المادية الاقتصادية هي العنصر الفعال والمسيطر في تاريخ المجتمعات البشرية، وهي أساس التحولات والتغيرات الاجتماعية والسياسية والفكرية الحاصلة في المجتمع. فقد كان علمي الاجتماع والتاريخ قبل ماركس يقومون بجميع وتكديس الوقائع التاريخية ويعرضان بعضها من حركة تطور التاريخ، ولكن لم يركزا البحث في عملية تشكل وتطور هذه الوقائع، وهذا ما قامت به الماركسية التي شقت الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لكيفية نشوء التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية وعملية تطورها وأسباب انبعاثها وزوالها، وذلك عن طريق تحليل جملة الميول المتناقضة والمتصارعة في هذه التشكيلات وردها إلى الظروف المعيشية والإنتاج.

قياساً على المادية الجدلية التي ترى أن ظواهر الطبيعة مترابطة ومتكاملة، فإننا نجد الأمر نفسه في المادية التاريخية التي ترى الظواهر الاجتماعية مترابطة ومتكيفة مع بعضها البعض. وانطلاقاً من هذا لا يجب على المؤرخ أو عالم الاجتماع الحكم على أي ظاهرة اجتماعية ما لم يكن هذا الحكم مراعيًا للظروف التي نشأت فيها هذه الظاهرة وساهمت في تطورها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى مادامت الطبيعة أو المادة هي الأسبق في الوجود من الوعي أو الفكر، وأن العالم الطبيعي واقع موضوعي والوعي انعكاس لهذا الواقع. فإن الأمر نفسه بالنسبة لأسبقية الحياة المادية للمجتمع على الحياة العقلية له، وأن الظروف المادية للمجتمع واقع موضوعي تحدد طريقة التفكير فيه. وبالتالي فهي انعكاس لهذا الواقع الموضوعي. وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن أصل الحياة العقلية للمجتمع في الظروف المجتمعية المادية لا في النظريات والأفكار الاجتماعية. ¹⁶ يقول ماركس: «في إنتاج الناس لحياتهم يدخلون في علاقات محددة، ضرورية ومستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات إنتاج تطابق درجة معينة من تطور قواهم الإنتاجية المادية. ويشكل مجموع علاقات الإنتاج هذه البنية الاقتصادية للمجتمع، أي يشكل الأساس الحقيقي الذي يقوم فوقه صرح علوي قانوني وسياسي وتمشي معه أشكال اجتماعية. فأسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية للحياة بوجه عام. ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم.» ¹⁷ إضافة إلى ذلك مادام العالم متغير وغير ثابت بحكم قانون التطور الذي يعني احتفاء القديم وحدوث الجديد، فإن الأمر نفسه ينطبق على النظم الاجتماعية فهي أيضاً متغيرة باستمرار. وانطلاقاً من ذلك يمكن القول بإحلال النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي كما حل هو نفسه مكان النظام الإقطاعي، وهذا بتركيز العمل على الفئات الاجتماعية التي توقفت عن التطور أو القابلة للتطور. ¹⁸ وعليه فتحقيق الهدف الأسمى المتمثل في إسقاط النظام الرأسمالي وتحريك طبقة البروليتارية من سيطرته وبناء المجتمع الشيوعي، يتم عن طريق الثورة وحدها (ثورة اجتماعية، اقتصادية، سياسية، إيديولوجية). التي تحدث نتيجة بلوغ القوى المادية المنتجة في المجتمع درجة من التطور التي تؤدي بها إلى الدخول في تناقض حاد مع العلاقات السائدة في المجتمع أي العائلات المالكة.

مفهوم أسلوب الإنتاج:

هو جملة النشاطات التي يقوم بها الإنسان من أجل تلبية احتياجاته اليومية من الطبيعة، ويتم ذلك عن طريق العمل وتنظيمه. كما يتميز بأنه في حالة دائمة التغير والتطور، وهو في تطوره هذا يؤدي إلى تغير النظام الاجتماعي بأسره،¹⁹ وبالتالي تغير الأفكار والمعتقدات والنظم السياسية. وعليه فتاريخ التطور الاجتماعي هو تاريخ تطور أسلوب الإنتاج عبر العصور المختلفة.

يتكون أسلوب الإنتاج من عنصرين رئيسيين: قوى الإنتاج، علاقات الإنتاج. قوى الإنتاج هي جملة الأدوات والمهارات والخبرات التي يستخدمها الناس في تعاملهم مع الطبيعة وتسخيرها لمصلحتهم من أجل إنتاج حوائجهم وضروريات الحياة. أما علاقات الإنتاج فهي جملة العلاقات التي تنشأ بين الناس أثناء عملية الإنتاج.²⁰ فالناس لا يؤثرون على الطبيعة فقط بل يؤثرون في بعضهم البعض أيضا من خلال العمل الجماعي والتبادل التجاري ... إلخ.

كل من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج عنصران ضروريان لا ينفصلان في عملية الإنتاج. إلا أن تأثير كل منهما في الآخر متفاوت، فقوى الإنتاج هي التي تحدد وتتحكم في علاقات الإنتاج القائمة في مجتمع ما. بمعنى أن تغير القوى المنتجة وتطورها يؤدي بالضرورة إلى تغير في علاقات الإنتاج. وليس معنى هذا أن علاقات الإنتاج لا تأثير لها على قوى الإنتاج، بل العكس فهي أيضا تؤثر فيها من خلال تعجيل تطورها أو تأخيرها.²¹ ومن جهة أخرى إن التطور الذي يشهده كل من قوى وعلاقات الإنتاج لا يجب أن يكون فيه فارق كبير، بل يجب التقريب والمطابقة بينهما لكي لا يؤدي ذلك إلى حدوث خلل في تطور الإنتاج، أو وقوع أزمة إنتاجية.

مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية:

هي مجموع الظواهر والعمليات (الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والمعيشية) القائمة على أسلوب معين تاريخيا لإنتاج الخيرات المادية التي تجعل من تطور المجتمع عبارة عن الحلول الحتمية لتشكيلة اجتماعية اقتصادية أكثر تطورا محل أخرى قديمة.²² يرى كارل ماركس أن المجتمعات الإنسانية قد مرت في تطورها التاريخي بخمس تشكيلات اجتماعية تتمثل في: المرحلة البدائية، المرحلة العبودية، المرحلة الإقطاعية، المرحلة الرأسمالية، المرحلة الاشتراكية.

أ_ المرحلة البدائية:

تعد هذه المرحلة الشكل الأقل تطورا في تاريخ التنظيم البشري، فيها اعتمد الإنسان لضمان بقائه على أدوات بدائية مصنوعة من الأحجار وعظام الحيوانات، والخشب. وبخصوص مأكله ومشربه ومسكنه فقد اعتمد على ما تجود به الطبيعة من ثمار وأوراق الأشجار وكهوف الجبال.

لكن مع مرور الزمن تغير حاله تدريجيا وبدأ في صنع أدوات أكثر تطورا مثل: القوس والقوارب والفأس والمحراث ... إلخ، فاتجه إلى زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات والرعي بدل من الاعتماد على خيرات الطبيعة فقط. كما مثل تعلمه لكيفية إشعال النار حدثا هاما ساهم في تحسين مستوى معيشته.²³

ب_ مرحلة العبودية:

لقد عرفت هذه المرحلة تطورا كبيرا مقارنة بالمرحلة السابقة من حيث وسائل الإنتاج وأيضا القوى المنتجة. فكان أن تم حفر الترع وبناء السدود والطواحين واستخراج المعادن وتحويلها إلى آلات للاستعمال سواء في الزراعة أو الحرف المختلفة. كما عرفت هذه المرحلة ظهور المدن وانتشار التجارة.

لقد كانت علاقات الإنتاج السائدة في هذه الفترة تتسم بالظلم والاستعباد نتيجة الملكية العائلية الغنية لوسائل الإنتاج وأيضا للعاملين أنفسهم، فقد كانوا عبارة عن عبيد لدى هذه العائلات. مما أدى إلى بروز طبقتين في المجتمع: طبقة الأسياد وطبقة العبيد.

ج_ المرحلة الإقطاعية:

إن تاريخ المجتمعات الإنسانية بحسب النظرية الماركسية في صيرورة وتغير واستمرار، وهذا يعني أن قوى الإنتاج في المجتمع في تطور أيضا، فقد عرفت هذه المرحلة اكتشاف واختراع وسائل جديد مثل اكتشاف الورق وظهور الطباعة وصناعة البارود، كما عرفت الحرف والزراعة أيضا تطورا ملحوظ نتيجة لاختراع أدوات وآلات جديدة.²⁴ إضافة إلى ذلك علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج في هذه المرحلة لا تختلف كثيرا عن سابقتها نظرا لاستمرارية ملكية المالك لوسائل الإنتاج والقوى المنتجة (العمال) التي يتحتم عليها القيام بكل الخدمات التي يملئها عليهم المالك أو رب العمل، مما

يعني استمرار الظلم والخضوع والاستغلال كطابع للعلاقات السائدة بين الطبقات. لكن مع فارق بسيط يتمثل في أن العامل "يدافع عن المصالح الاقتصادية والاجتماعية للإقطاعيين وليس ملاك العبيد أو الأسياد".²⁵

د_ المرحلة الرأسمالية:

إن تطور القوى المنتجة أدى إلى سقوط الإقطاعية وحلول محلها النظام الرأسمالي الذي عرف ازدهار وتحضر المدن وإنشاء المصانع وتحرير العمال، فالعامل في النظام الرأسمالي حر مقارنة بالنظام الإقطاعي، فرغم أنه لا يملك الأرض أو وسائل الإنتاج إلا أنه ليس مملوك لدى أحد. ومع ذلك فحاله لا يختلف كثيراً عن العبد لأنه يضطر مثل العبد إلى بيع جهده للرأسمالي من خلال العمل في مصانعه، وهذا بدوره لا يخلو من مظاهر الظلم والاستغلال.²⁶

إن التطور الذي عرفته قوى الإنتاج في النظام الرأسمالي لم يصحبه تطور مماثل على مستوى علاقات الإنتاج "ويكشف ذلك تناقض أسلوب الإنتاج الرأسمالي في طابعه الاجتماعي لعملية الإنتاج وبين شكل التملك الرأسمالي الخاص. بمعنى أن ملايين العمال الذين يعملون في إطار النظام الرأسمالي لا تذهب إليهم منتجاتهم، وحيث تستحوذ عليها فئة قليلة من الرأسماليين".²⁷ وهذا ما يعتبره كارل ماركس كنوع من الاستغراب بين المنتج وسلعته التي أنتجها، بحيث أنه أولاً لا يستفيد منها، وثانياً إن وجدها لا يكفيه أجره لشرائها. وهذا ما سيؤدي في الأخير إلى نشوب صراع وتصادم بين الطبقتين البرجوازية والبروليتارية، الأمر الذي سوف يؤدي إلى نقل المجتمع إلى مرحلة الاشتراكية.

و_ مرحلة الاشتراكية:

تأتي هذه المرحلة نتيجة لوجود طبقة عاملة ذات وعي اجتماعي واقتصادي تقوم بالثورة على كل أشكال القهر والاستغلال الاجتماعي. وإحلال محلها نظام اجتماعي واقتصادي مبني على أساس العدل والمساواة بين الناس، بحيث تتميز فيه علاقات الإنتاج بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج وانتفاء الطبقية، على عكس ما كان سائداً في المراحل السابقة.

إن الثورة على النظام الرأسمالي ستؤدي إلى تنصيب البروليتارية كقوى حاكمة تعمل على هدم "كل علاقات الإنتاج القديمة، مما يؤدي إلى الانتقال بالنظام الاقتصادي والاجتماعي من "دعه يعمل دعه يمر" إلى نظام الرقابة الحكومية، ثم إلى نظام الخدمات الاجتماعية، ثم إلى نظام ملكية الدولة بعد زوال الملكية الفردية أو الخاصة، بهذا ينشأ النظام الاشتراكي".²⁸ يجب الإشارة هنا إلى أن الدولة في المرحلة الاشتراكية ليست دائمة، وإنما هي مرحلة انتقالية تعمل على تنظيم وضبط الأمور تمهيداً للمرحلة الشيوعية التي تعتبر الهدف الأسمى لكل الماركسيين، ففيها تنعدم الطبقية والملكية، وتسود العدالة الاجتماعية.

ثالثاً/ الصراع الطبقي: conflit de classes

لقد تبني كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز في نظريتهما المادية للمنهج الجدلي الذي اشتهر به هيجل قبلهما، إلا أن تبنيهما لهذا المنهج لم يكن مطابقاً لما وضعه هيجل. بل أخذوا منه نواته الجدلية وعدلاً فيه وحولوا موضوعه من جدل الأفكار والتصورات العقلية إلى جدل الطبيعة والمجتمع، أي التحول والانتقال من صراع الأفكار إلى صراع الطبقات الاجتماعية. هذا الأخير في حقيقته هو صراع بين من يملكون ومن لا يملكون، بين من يملكون وسائل الإنتاج والثروة، وبين من لا يملكون إلا جهدهم العضلي. إن هذا الصراع القائم في المجتمعات قدم قدم المجتمع ذاته، فإذا استتبنا ظاهرة الصراع قديماً نجدها موجودة في شتى المراحل التاريخية _ ما عدا المرحلة البدائية _ التي مر بها المجتمع في تطوره، فقد كان الصراع موجود بين السيد والعبد في المجتمع العبودي، وبين الإقطاعي والفلاح في المجتمع الإقطاعي، وبين البرجوازي والبروليتاري في المجتمع الرأسمالي. إلا أن هذا الصراع سينتهي ويختفي عند تحقق وجود المجتمع الشيوعي الذي يسود فيه العدل والمساواة وتزول فيه الطبقات والاستغلال.

يعترف ماركس بحقيقة أنه لم يكتشف وجود الطبقات ولا الصراع الطبقي، كما أنه يقر بأسبقية بعض المفكرين البرجوازيين الذين أشاروا لهذه المفاهيم في تطرقهم لبعض القضايا الاجتماعية. يقول ماركس في رسالة أرسلها إلى المفكر ويدماير 1852: «أما فيما يتعلق بي الآن، فليس إلي الفضل في اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع الحديث، ولا الفضل في اكتشاف الصراع فيما بينها. فقد سبقني بوقت طويل مؤرخون وبرجوازيون إلى عرض التطور التاريخي لصراع الطبقات هذا، واقتصاديون وبرجوازيون إلى تشريحه اقتصادياً». ²⁹ فرغم أسبقية غيره في هذا التحديد، إلا أن هذا لم يمنع ماركس من إضافة بعض الملاحظات الجديدة في هذا الموضوع. يقول في ذلك: «أما الجديد الذي أتيت به فهو: 1_ إقامة البرهان على أن وجود الطبقات لا يرتبط إلا بمراحل تاريخية محددة من تطور الإنتاج. 2_ على أن صراع الطبقات يفرض بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتارية. 3_ على أن هذه الدكتاتورية لا تمثل هي نفسها سوى انتقال نحو الغاء الطبقات كافة ونحو مجتمع بلا طبقات». ³⁰

إن الحياة الاجتماعية مليئة بالتناقضات والاختلافات التي تكون أحيانا بين مجتمعات مختلفة تسعى كل منها لتحقيق أهداف ومصالح معينة، وأحيانا أخرى نجدها بين أفراد المجتمع الواحد. وكنتيجة لهذه التناقضات فهي تؤدي في كثير من الأحيان إلى نشوب صراعات وحروب تعيد تشكيل خارطة العلاقات الاجتماعية. يقول ماركس: «إن تاريخ أي مجتمع حتى الآن، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية. حر وعبد، نبيل وعامي، بارون وقن، معلم وصانع، وبكلمة ظالمون ومظلومون، في تعارض دائم، خاضوا حربا متواصلة، تارة معلنة وطورا مستترة، حربا كانت تنتهي في كل مرة إما بتحول ثوري للمجتمع كله، إما بهلاك كلتا الطبقتين المتصارعتين.»³¹ لذا نجد الماركسية تعمل على اكتشاف البنى والقوانين التي تتحكم في هذا الصراع من أجل تحديد النتيجة التي سيؤول إليها. فكما هو معلوم فإن المجتمع بحسب النظرية الماركسية يتألف من بنيتين اثنتين: بنية فوقية (SUPERSTRUCTURE) وبنية تحية (INFRASTRUCTURE)، الأولى تتمثل في مجموع الافكار والقيم الروحية والسياسية والقانونية والأخلاقية والدينية للمجتمع. أما البنية التحتية فتطلق على مجمل الظروف المادية الاقتصادية والاجتماعية الحاصلة في المجتمع. كما أنها هي التي تتحكم وتحدد البنية الفوقية، فهذه الأخيرة مجرد انعكاس للظروف الاقتصادية للمجتمع، وعليه فأي تغير أو تطور يحدث في البناء التحتي يواكبه تغيير وتحول في البناء الفوقي. ومادام الأمر كذلك فإن معرفة القوانين والأسس التي تتحكم في تطور البنية التحتية كفيل لمعرفة كيفية تغير التاريخ وتطوره.

إلا أن هذا القول لا يعني عدم وجود تفاعل بين هاتين البنيتين وأن كل منهما له صيغته المستقلة عن الآخر، بل على العكس هناك تفاعل وتبادل حاصل، فالعلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر. ولولا وجود هذا التفاعل لما كانت مادية ماركس مادية دياكتيكية، لأن غياب هذا التفاعل يجعل من ماديته مادية لا تختلف كثيرا عن المادية الميكانيكية التي تميز بها المفكرين الماديين الفرنسيين في القرن الثامن.

يرى ماركس أن المجتمع الحديث يتألف من طبقتين رئيسيتين هما: طبقتي البرجوازية والبروليتارية. العلاقة بينهما علاقة صراع وتصادم واستغلال، البرجوازية تحاول الحفاظ على العلاقات السائدة في المجتمع من منطلق أنها تخدم مصالحها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. والبروليتارية تعمل على إحداث الثورة التي تؤدي إلى تغيير الموازين الاجتماعية والاقتصادية والتي من شأنها تحسين ظروف معيشة العمال الكادحين والطبقة الفقيرة بصفة عامة.

لا يختلف اثنان حول أنه في المجتمع الأوروبي الحديث، الطبقة البرجوازية تستغل بشتى الطرق الطبقة البروليتارية، بحيث أنه كلما زاد العمل زاد الاستغلال بشكل أوسع ويتحول معه العامل إلى مجرد آلة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن العمال لا يأخذون حقهم الكامل من جراء العمل الذي يقومون به، بل يأخذون ما يحتاجونه للعيش فقط، أما الباقي فيأخذها صاحب العمل، وهذا الذي يسمى فائض قيمة عمل العمال الذي من خلاله يتراكم رأس المال في المجتمع الرأسمالي. هذا النهب والاستغلال المقنن الذي يمارسه الملاك على العمال المضطهدين هو الذي دفع بطبقة البروليتارية إلى المطالبة بتحطيم الرأسمالية³² وإعلان الثورة عليها، وهذا من أجل القضاء على المجتمع الطبقي، وإحلال الملكية العامة مكان الملكية الخاصة.

خاتمة:

في ختام بحثنا هذا نرى أن المادية الجدلية باعتبارها إحدى آليات التحليل الماركسي تفهم التطور الحاصل في الطبيعة على أنه مجموع عمليات متناقضة ومتصارعة فيما بينهما، ذلك الصراع والتناقض يؤدي إلى زوال القديم وبروز الجديد. وهكذا تبقى العملية التطورية في تجدد واستمرار. من جهة أخرى تعمل المادية الجدلية على دراسة الظواهر الطبيعية من حيث مبادئها وحركتها وتطورها وعلاقاتها ببعضها البعض، مما يسمح لها بمعرفتها والتنبؤ بمسار تطورها مستقبلا.

إن تفسير الظواهر الاجتماعية وفقا للمادية التاريخية يكون بالبحث في النشاطات المادية للمجتمع، أي التركيز على التطور الاقتصادي بما يتضمنه من وسائل وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. فالعلة المحركة للأحداث الاجتماعية والتاريخية حسب كارل ماركس وفريدريك إنجلز تكمن في النشاط الاقتصادي فهو شرط أساسي ومؤثر حاسم في حصول المجتمع على وسائل الحياة الضرورية للعيش، كالمأكل والمشرب والملبس والسكن ... الخ. بمعنى أن أسلوب الإنتاج هو المسؤول عن تطور المجتمع وتشكله وأيضا انتقاله من نظام اجتماعي إلى آخر.

إن الصراع الطبقي في جوهره هو صراع بين من يملكون وسائل الإنتاج وبين من لا يملكونها، وهو صراع قديم قدم المجتمع ذاته. ولمعرفة النتائج والاتجاه الذي سينتهي إليه والعلاقات الجديدة التي ستنشأ من جرائه يكفي اكتشاف العلاقات والقوانين التي تتحكم فيه، وهذا ما تسعى الماركسية للوصول إليه. بفضل هذه الآليات المعتمدة في التحليل والتفسير استطاعت النظرية الماركسية أن تغير الواقع ولو نسبيا، إذ مكنتها ذلك من إقامة واقع ومجتمع جديد مغاير لما كان سائدا، لا مكان فيه للظلم والاستغلال وموفر لبيئة جديدة مبنية على الحرية والإبداع.

- الإحالات والمراجع :

- 1 _ مجمع اللغة العربية، (2004)، المعجم الوسيط، ط 4، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ص 858.
- 2 _ مراد وهبة، (2007)، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء، ص 554، 553.
- 3 _ مراد وهبة، (1998)، قصة الديالكتيك، ط 1، القاهرة، دار العالم الثالث، ص 05.
- 4 _ مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 556، 555.
- 5 _ موريس كورنفورث، (1975)، مدخل إلى المادية الجدلية، المجلد الأول، تعريب: محمد مستجير مصطفى، ط 4، بيروت، دار الفارابي، ص 70.
- 6 _ فريدريك أنجلز، لودفيغ فوريباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، تقديم: سلامة كيل، القاهرة، دار روافد للنشر والتوزيع، ص 29، 30.
- 7 _ نقلا عن / ستالين، (2007)، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، سورية، دار دمشق، ص 26.
- 8 _ فريدريك أنجلز، (1984)، ضد دوهرنج، ترجمة: محمد الجندي، موسكو، دار التقدم، ص 140.
- 9 _ إمام عبد الفتاح إمام، (2007)، المنهج الجدلي عند هيجل، ط 3، لبنان، دار التنوير، ص 309.
- 10 _ المرجع نفسه، ص 311.
- 11 _ فريدريك أنجلز، ضد دوهرنج، مرجع سابق، ص 159.
- 12 _ جلال الدين سعيد، (2004)، معجم المصطلحات الفلسفية، تونس، دار الجنوب للنشر، ص 406، 405.
- 13 _ حسام الدين فياض، (2017)، كارل ماركس وعلم المجتمع، ط 1، صفحة نحو علم اجتماع تنويري، ص 05.
- 14 _ أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، مصر، دار الاعتصام، ص 50.
- 15 _ نقلا عن / جميل صليبا، (1982)، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، لبنان، دار الكتاب اللبناني، ص 310.
- 16 _ ستالين، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، مرجع سابق، ص 55.
- 17 _ كارل ماركس، (1969)، نقد الاقتصاد السياسي، تر: راشد البراوي، ط 1، بيروت، دار النهضة العربية، مقدمة.
- 18 _ ستالين، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، مرجع سابق، ص 38.
- 19 _ المرجع نفسه، ص 72.
- 20 _ المرجع نفسه، ص 69، 70.
- 21 _ المرجع نفسه، ص 76.
- 22 _ خليل إندراوس، المفهوم المادي عن التاريخ وعلم المجتمع، الجبهة، الحوار المتمدن، السبت 2015/08/29 الرابط الإلكتروني: <http://m.ahewar.org/s.asp?aid=482440&r=0&cid=0&u=&i=1581&q>
- 23 _ شحاتة صيام، (2009)، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، ط 1، مصر، مصر العربية للنشر والتوزيع، ص 106، 105.
- 24 _ حسام الدين فياض، كارل ماركس وعلم المجتمع، مرجع سابق، ص 36.
- 25 _ شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 109.
- 26 _ حسام الدين فياض، كارل ماركس وعلم المجتمع، مرجع سابق، ص 36.
- 27 _ شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 110.
- 28 _ حسام الدين فياض، كارل ماركس وعلم المجتمع، مرجع سابق، ص 37.
- 29 _ مراسلات ماركس _ أنجلز، (1973)، ترجمة: جورج طرايشي، ط 1، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص 22.
- 30 _ المرجع نفسه، ص 22.
- 31 _ كارل ماركس، فريدريك أنجلز، (1987)، بيان الحزب الشيوعي، ترجمة: عصام أمين، ط 1، دراسة البيان الشيوعي، ص 15.
- 32 _ شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 126.